

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد: فإن الجماعة الإسلامية لها دائرتها الوجدانية الخاصة ضمن منظومة الكون الواحدة، تتميز بمقومات الأخوة الإيمانية، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: ١٠، وتتنظم فيها بجامع العقيدة الواحدة، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ مَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٩٢، ولا ينسجم إيمانها وطبيعتها انتمائها مع الصراع والتنازع: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ آل عمران: ١٠٥، متحدة في مسيرتها وحقائق دينها وفي أهدافها، وهي صف واحد أمام أعدائها، حتى أناط الشارع حقيقة إيمانها بحب بعضها لبعض، «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»<sup>(١)</sup>.

وأقام نسق العلاقات بين أفرادها وجماعتها نسق أعضاء الجسد الواحد، «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»<sup>(٢)</sup>. فإن طرأ على جسدها مرض التنازع دعاها إلى إصلاح حالها، بتحقيق مقتضى الإيمان بين أعضائها، وإعادة ريحها، وإقامة جسور المحبة والتعاون والتآلف، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال: ١. لذلك فإننا إذ ننظر في طبيعة العلاقات بين المسلمين، أو بين مذاهبهم ومشاربهم، فإنما هو في الحقيقة بحث عن العلاقة بين الشيء ونفسه أو بعضه.

ومثل هذا التصور والنظرة المتكاملة لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في علاقاتهم ببعضهم، يقتضي أن يكون الخطاب الذي يسود بينهم هو الذي ينسجم مع طبيعة

١- صحيح البخاري: رقم (١٢) باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وصحيح مسلم: رقم (٦٤) باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير.  
٢- صحيح البخاري: رقم ٥٥٥٢ باب رحمة الناس والبهائم، ومسنود أحمد: ٢٦٨/٤ برقم (١٨٣٨١) وشعب الإيمان: البيهقي: ١٠٢/٦ برقم (٧٦٠٩) بلفظ: مثل المؤمنين.

هذه العلاقة، من حيث ترسيخها، وترقيتها، والمحافظة عليها، ونزع ما قد يعترض طريقها.

لكن واقعا لا ينتظم على مقتضى إيماننا، متنازعون في أحوال كثيرة، ومتفرقون على منح متعددة، حتى غدونا من أضعف الأمم، فمجتمعاتنا ينخر فيها سوس التعصب، وعثة النصب، تشق عصاها اختلافات فكرية وسلوكية، وتعيش في الغالب أوضاعا حادة من الصراع الفرقي، والتعصب المذهبي، يكمن أحيانا، ويستثار أحيانا أخرى بفعل الاستقطاب والمصالح الضيقة، حتى إذا استشرى تغيبت فيه كل الضوابط الدينية والأدبية، في الخطاب والسلوك.

ولا مرأ في أن الاستقطاب الفرقي، والتحدي المذهبي تبنته تيارات واتجاهات في المجتمع الإسلامي، كل منها يدعي الولاية الفكرية على غيره، ويحجز مقعدا في الجنة لأتباعه، ودركات سحيقة من الجحيم لمخالفيه، فتباعدت المسافات بين المسلمين، وضاعت فرص التلاقي والاتصال، واستحال التعصب والتمايز المذموم إلى بنى معرفية ترتكز في الشعور، وقيم سلوكية تتحرك في الواقع، وفرقة نفسية تغذيها النخب، وتسعى للحفاظ عليها تيارات في المجتمع.

وفي جانب آخر؛ تبنت السياسات تيارا أو اتجاها فكريا مقربا، وضيقا واسعا على آخر، ووضعت القوانين التي تمنع الناس من الخروج عن مذاهبهم، فحدت من حركة الفكر الاجتهادي واختيار الرأي الحر المعتبر، وانتقلت الاجتهادات والمذاهب عن أن تكون أفهاما بشرية تناقش فتؤخذ أو ترد، إلى كونها التزامات دينية وسياسية معصومة، تتحدد بها سياسات دول، وتتقمص بها مجتمعات واتجاهات متميزة، فلا يستطيع من نشأ عليها الخروج عنها، فعطلوا الفكر، واغتالوا النظر، وأزموا الحقيقة باسم المحافظة على الحقيقة، وشوهت المسميات باسم الدفاع عنها.

إن المشكلة ليست في الخلاف الذي قد ينشأ هنا أو هناك، وإنما في شخصنة هذا الخلاف، وعصبية الانتماء، والوصاية على الفكر، هو في التناقض الشديد بين ما يعلنه الناس عقيدة لهم، وبين ما يمارسونه في الواقع، فتحول الخطاب عبر وسائله

المختلفة إلى فضاضة فجة، وعوامل فرقة، وتحريض ونكاية، وكأن هذا غاية ومقصد، فتدنى إلى أدنى مستوياته الأدبية، وانحط عن قيمه اللازمة التي دعا القرآن الكريم إلى التأدب بها، وعلق عليها صدق التقوى وكمال الإيمان. ثم الاختلاف في الحكم على هذا التناقض، إن الإشكال هو في الحكم على الناس، هل هم في الدائرة الإسلامية الواسعة السمحة، أم أنهم أخرجوا من الملة؟

وفي هذه الدراسة أحاول وبايجاز تلمس بعض المعايير والمعالم الكلية، والقواعد العامة حول التقارب والتواصل بين المسلمين، تحت عنوان (مرتكزات العلاقة بين المسلمين ومقوماتها) وهو محاولة في وضع بعض الأطر المساعدة على إزالة العوائق العملية في سبيل تحقيق التقارب، وإدامة التواصل بين المسلمين، وقد جعلت الدراسة على مبحثين:

الأول: أدرس فيه مرتكزات العلاقة الوجدوية بين المسلمين.

الثاني: مقومات التكامل الوجدوي بين المسلمين. والله الموفق.

## المبحث الأول

### مرتكزات العلاقة الوجدوية بين المسلمين

في سبيل تحقيق العلاقة المثالية بين المسلمين جماعات وأفراد، في الفكر والسلوك، في الأقوال والأفعال، فقد حرص القرآن الكريم على إحاطة جماعة المسلمين بمجموعة من القيم التربوية والقواعد العملية التي تنظم شبكة العلاقات الإيجابية، وترتقي بالخطاب إلى مستوياته الأدبية التي تتسجم مع طبيعة تلك العلاقة فيما بينهم، وبما يحفظ لهم تواصلهم وتفاعلهم الإيجابي المشترك، ويهدف نحو تحقيق وحدتهم في الواقع، ومن أبرز ذلك:

### أولاً- الأخوة الإيمانية:

عدّ القرآن الكريم رابطة العقيدة بين المسلمين أقوى روابط الالتقاء والاتصال بينهم، وجعل (الأخوة الإيمانية) هي أصدق تعبير عن هذه الوحدة المشتركة كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الحجرات: ١٠، فترفع بهذا عن كل معايير الانتماء والتوطن التي تحول دون الالتقاء الحر والاتصال المباشر بينهم، والتي تضيق من فرص التعارف والتعاون، وتحد من قيام روح الإخاء الإيجابي بين المسلمين.

لذلك فإنه لا يصلح ولا ينبغي أن يقال بأن أصل العلاقة بين المسلمين السلام، وإنما هي في أصل نظرة القرآن الكريم إليها فوق ذلك، وأساساً من أن تكون علاقة بين جماعات متميزة، هي علاقة أخوة،<sup>(١)</sup> تستوجب كل ما تستوجبه العلاقة في الدائرة الخاصة الواحدة، من ائتلاف ومحبة وتعاون وتكامل ووافق تام.

فالأخوة لحمة نَسَبِيَّة، لذلك قالوا: إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد، ومن الوفاء به: أن لا يهمل الأخ أيام حاجته، في دينه أو نفسه أو ماله أو أهله، فإن أصابته جائحة، وألمت به آفة افتقر بسببها إلى أخيه، فينبغي أن يراقب ويراعى ولا يهمل، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الوقعة التي ألمت به.<sup>(٢)</sup>

١- قال بعض أهل اللغة: (الإخوة) جمع الأخ من النسب، (والإخوان) جمع الأخ من الصداقة، جاء في مختار الصحاح قوله: «وأكثر ما يستعمل الإخوان في الأصدقاء، والإخوة في الولادة». التفسير الكبير: ١١١/٢٨ وروح المعاني: ١٢٥/٢٦

٢- إحياء علوم الدين: ١٨٤/٢.

وحق القرابة مندوب إلى مراعاته، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ في عشيرته: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الشعراء: ٢١٦، ولم يقل: إني بريء منكم، مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب، وحق الأخوة أولاها بالاعتبار، فإذا توثقت بالدين كانت أوكد.

ولا شك أن رابطة الأخوة الإيمانية التعاملية تقتضي أن يكون التخاطب الأخوي طريقها، وأدب الحوار وثاقها، فهي أخوة شاملة لكل مسارات علاقاتهم، تنتظم في إطارها قنوات حركتهم الفكرية والاجتماعية. بل لا يحسن إيمان المرء ولا يكمل إلا إذا كان الشعور بهذه الأخوة مترسخ في الوجدان، ومعبر عنه في السلوك، كما بين ذلك ﷺ بقوله: «لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير»<sup>(١)</sup>.

ولم يعد القرآن الكريم بأية معايير تجمعية تحول دون اعتبار معيار الأخوة الإيمانية هو الوثاق الذي يجمعهم، والرباط الذي يرفع من درجة الجماعة المسلمة ومن ترابطها وتكاملها، فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام: ١٥٣.

### ثانيا- الوحدة من مقتضيات التوحيد:

فقد اعتبر القرآن الكريم وحدة المسلمين مقصداً أسمى من مقاصد الشريعة، بل المقاصد الخمسة هي أقرب إلى كونها مقاصد فردية، ترمي إلى تحقيق المقصد الاجتماعي، وهو وحدة المسلمين ونبذ النزاع والاختلاف بينهم.

فخاطب الجماعة المسلمة أمراً لها بالوحدة، وجعلها أصلاً للعلاقات بين أبنائها فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٩٢، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ المؤمنون: ٥٢، تجمعهم عبادة الله وحده، وتوحدتهم مستلزمات التوحيد، فمن فرط فيها فرط ببعض إيمانه وتقواه؛ لأنه لا قوام لحقيقة توحيدهم لربهم إلا إذا توحدت صفوفهم، ولذلك جمع بين التوحيد والوحدة، فتوحيد الأمة لربها يقتضي توحيد صفها، ووحدة الأمة تستند إلى وحدانية ربها.

<sup>١</sup> - صحيح البخاري: رقم (١٣) باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ولم يرد فيه (من الخير)، وسنن النسائي: ١١٥ / ٨ (٥٠١٧) واللفظ له.

### ثالثاً- لزوم جماعة المسلمين:

وحض كثيرا على لزوم الجماعة ونفي التفرق، ونهى نهيا عاما ومطلقا عن النزاع والتناحر بكل صنوفه، وأمر بالسعي إلى نزع من بين أفرادهم وجماعاتهم إن وقع، وعدّ الاعتصام بحبله أصل عظيم، هو من أعظم أصول الإسلام الذي عظمت الوصية به في الكتاب والسنة.<sup>(١)</sup> وقد اطرده ذلك في الخطاب القرآني كثيرا من نحو قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آل عمران: ١٠٣.

لأن الأهداف العليا، والغايات الكبرى، والأصول الكلية لا ينبغي أن تعارضها أية أهداف وغايات أخرى، والوحدة بين المسلمين هي أصل أصيل، بل هي أصل الأصول كلها، فلا قيام لأصول الإسلام، ولا حقيقة وجودية لجماعة المسلمين في حال تفرقهم واختلافهم. يقول ابن تيمية:<sup>(٢)</sup> «الاجتماع والاتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله».

وهذا ما أكدته السنة فعن عرفة بن شريح الأشجعي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «سيكون بعدي هنات وهنات، فمن رأيتموه فارق الجماعة، أو يريد أن يفرق بين أمة محمد ﷺ وأمرهم جميع، فاقتلوه كائنا من كان، فإن يد الله مع الجماعة، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض».<sup>(٣)</sup> وفي رواية أخرى عن عرفة أيضا عن النبي ﷺ يقول: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَىٰ رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَأَقْتُلُوهُ».<sup>(٤)</sup>

١- التفسير الموضوعي: ابن تيمية: ١٠٨.

٢- التفسير الموضوعي: ١٠٦. وينظر: مجموع الفتاوى: ١١٦/١٩.

٣- صحيح مسلم برقم (١٨٥٢) في الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، وصحيح ابن حبان: ٤٣٨/١٠ واللفظ له، وقال المحقق: صحيح، وشعب الإيمان: ٦١/١٦ وفيه بلفظ: فمن رأيتموه فارق الجماعة فكائنا فارق بين أمتي. والهنات: الشرور والفساد، والشدائد والأمور العظام.

٤- صحيح مسلم برقم (٣٤٤٣) باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع.

بل انتقل بذلك إلى ما هو أبعد، فربط بين حقيقة إيمان المرء وبين التزام الصف والجماعة، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من خالف الجماعة شبرا خلع ريقة الإسلام من عنقه». (١)

وليس المراد من لزوم الجماعة سوى الاجتماع والائتلاف بينهم في إطار يميز جماعتهم، ويحقق وحدتهم في الأهداف والغايات، ويبني تكاملهم في المشتركات.

### رابعاً- الولاء الإسلامي:

وكما أمر بلزوم الجماعة والمحافظة على وحدة الصف، أمرهم بالولاء لبعضهم فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التوبة: ٧١، ومقتضى صحة المعنى أن الخبر هنا ليس على بابه، وإنما المراد به الأمر؛ لأن أرباب الدين الواحد لا يمكن أن يكونوا إلا كتلة واحدة متماسكة، ويبدأ وحدة عاملة، تربط العقيدة بين قلوبهم، والأخوة بين عواطفهم، والتضامن والتكامل بين جماعتهم، متميزون فيما بينهم عن سواهم ضمن الدائرة الإيمانية الخاصة، ولا معنى للزوم الجماعة، بل ولا قيام لها في الواقع إلا إذا كان التوالي بالنصرة والتعاون بينهم قائم.

ثم نهاهم عن التوالي لغيرهم بالنصرة والمعونة على إخوانهم المسلمين، وجعل ذلك مقتضى الإيمان المشترك، وما يستدعيه من التحابب والتآخي والتعاون والتناصر، وما يستلزمه من التواصل الثقافي والنفسي والاجتماعي والحضاري، فلا يُقدّم غيرهم في التوالي على بعضهم، حتى لا تنتشق وحدتهم، ولا ينشب النزاع بينهم، ولا يهون أمرهم فقال: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ آل عمران: ٢٨. لأن اتخاذهم أولياء من دون المؤمنين يحدث شرخاً في جدار الأمة، ويشق عصا الكلمة، وقد اطردت الآيات على هذا، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ آل عمران:

١- مسند أحمد: ٥/ ١٨٠ رقم (٢١٦٠٠) قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره، لجهالة خالد بن وهبان.

١١٨، ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيَّتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ النساء: ١٣٩.

ولعل أخطر داء يدب في صفوف الأمة هو توالي بعضهم طرفا من غيرهم على بعضهم الآخر، فيستتصر شق من الجسد على الشق الآخر بطرف ثالث، فإذا ما انتهت الأمة إلى الإخلال بمبدأ الولاء أخلت بقيمها الدينية والأدبية ومقتضيات وجودها. وهو ما حدث في بعض منحدرات التاريخ الإسلامي، مثل استتصار المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية بطائفة من النصارى على المرابطين، ومثله كان في بعض منحدرات التاريخ الحديث، وأخباره ليست مجهولة، مما أدى إلى إضعاف الأمة كلها، إذ كان يعمل الطرف الثالث دائما على تأجيج التناقضات، وتوسيع الخروقات، وإذكاء العصبية المذهبية، بغية تشظية العصا، وتشقق الجدر، وتشردم الجمع، وانفراط العقد، وانتهى مثل هذا الإخلال بميزان التوالي إلى نتائج خطيرة على المستتصر والمستتصر عليه.

### خامسا- النهي عن التفرق والتنازع:

ولإحاطة الجماعة بسياج من الوقاية في جانب السلب فقد نهاهم عن الاختلاف المؤدي إلى التنازع والافتراق فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ الأنعام: ١٥٩، ودعا إلى أخذ العبرة من تاريخ الأمم السابقة حينما دب الاختلاف بغيا بينهم، فقادهم إلى التمزق والضياع والضلال، واتبعوا سبلا غير سبل الحق، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران: ١٠٥.

وسجل مخاطر التفرق والاختلاف على قوة الأمة وتعاونها وتضامنها نحو تحقيق أهدافها المشتركة، فقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنفال: ٤٦. وفي هذا عظمت وصية النبي ﷺ فقال مؤكدا أهمية لزوم الجماعة والوحدة، وقال: «عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة،



فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوة الجنة فليزم الجماعة، من سرتة حسنته وسأته سيئته فذلكم المؤمن»<sup>(١)</sup>.  
وقرن بين نهيه عن التنازع وبين الأمر بالصبر، مشيرا إلى ما يجب أن يكون عليه المسلمون من التسامح والعمو وكظم الغيظ، والصبر على ما يلقاه المسلم من أخيه المسلم، ﴿وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران: ١٣٤.

وأمر بمنع وقوع أسباب التفرق، فعن الحارث الأشعري رضي الله عنه من حديث طويل قال: قال النبي ﷺ «وأنا أمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع»<sup>(٢)</sup>.

كل هذا لأن باب الفساد الذي يقع في الأمم هو في التفرق والاختلاف والتعصب، فكان السبب في ذهاب الكلمة في هذه الأمة، وفي غيرها أيضا، سواء الذي يقع بين أمرائها أو علمائها أو مشايخها وملوكها وغيرهم<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان الخلاف بين البشر عموما هو قدر كوني، وأصل وجودي قائم، فإن الأصل بين جماعة المسلمين هو ذم الخلاف وتجنبه، مادام اختلافا حقيقيا قد يسبب فرقة ويوقع في تعارض.

### سادسا- إصلاح ذات البين:

فأمر بإصلاح الخلل الطارئ على علاقتهم ببعضهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الحجرات: ١٠، فبعد أن أثبت لهم وصف الإخوة، دعاهم إلى الإصلاح بين المتنازعين من إختوتهم، وبالغ في التعبير

١- أخرجه أحمد: ١/٨١ رقم (١١٤) والترمذي: ٤/٤٦٥ رقم ٢١٦٥ وقال: حسن صحيح غريب. وأبو يعلى: ١/٣١١ رقم ١٤١، وابن حبان: ١٦/٢٣٩ رقم (٧٢٥٤) والحاكم: ١/١٩٧ رقم (٣٨٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه النسائي في الكبرى: ٥/٣٨٨ رقم (٩٢٢٥).  
٢- سنن الترمذي: ٥/١٤٨ رقم (٢٨٦٣) باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، وقال الترمذي: حديث صحيح حسن غريب، وقال الألباني: صحيح. ومسند أحمد: ٤/١٣٠ رقم (١٧٢٠٩) وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح، وعنده سند آخر رقم (١٧٨٣٣) قال عنه: حسن.  
٣- ينظر: مجموع الفتاوى: ١١٦/١٩ و ٢٠/٢٩٢.

عن ذلك فقال: ﴿أَخَوِيكُمْ﴾، فأظهر وصف المختلفين بالإخوة، للحض على ما تقتضيه الأخوة من التعاون والتأصر.

وتخصيص الاثنين في: ﴿أَخَوِيكُمْ﴾ بالذكر؛ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية، لتضاعف الفتنة والفساد فيه، ومثله الأمر بالإصلاح عند الاقتتال بين طائفتين في الآية السابقة، فقد يكون لظان أن يظن أنهم مأمورون بالإصلاح إذا نشب قتال بين طائفتين، وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الإصلاح، ثم أردفه بالتنبيه إلى أن هذا واجب أيضا فيما دون الطائفة، بأن يكون فساد ذات البين بين رجلين اثنين فقط، وذلك لدفع ما قد يتوهمه متوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح، فقال: ﴿بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾، وإن لم تكن الفتنة عامة، وإن لم يكن الأمر عظيما كالقتال، بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا في الإصلاح. فنزل الاختلاف القليل منزلة الاختلاف الكبير، واختلاف الاثنين منزلة اختلاف الطائفتين، لما يترتب عليه من نتائج مستقبلية في المجتمع.

ثم أكد الأمر بالإصلاح بالأمر بالتقوى، ورتب على ذلك رجاء رحمته تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إشارة إلى أن التقوى سباج واق يمنع من التخاصم والتقاطع، ويصون العلاقة بين الإخوة، وأن التآخي من مستلزمات التقوى، فجاء قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ إشارة إلى الصلح، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى ما يصونهم عن التشاجر، لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره، ولهذا قال ﷺ: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»، فالمسلم ينبغي أن يكون منقاداً لأمر الله مقبلاً على عباد الله، فيشغله عيبه عن عيوب الناس، ويمنعه أن يرهب أخاه المؤمن، يعني: اتق الله فلا تتفرغ لغيره.

ويلاحظ أن الخطاب القرآني كثيرا ما يربط بين تقواه وبين دعوته إلى الأخوة بين المؤمنين، وإصلاح ما بينهم. كما قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال: ١، أي: فاتقوا عقاب الله ولا تقدموا على معصيته،

واتركوا المنازعة والمخاصمة بينكم فإنها معصية وإخلال بالإيمان. وإظهار الاسم الجليل (الله) في الموضوعين لتربية المهابة وتعليل الحكم. وربط بين تقواه وبين إصلاح ذات البين بين المسلمين والسعي بينهم بالتآخي والإصلاح، وجعل ذلك من مقتضيات صدق الإيمان وتحقيقه في النفس والواقع.<sup>(١)</sup>

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه تنشيط للمخاطبين، وحث لهم على المسارعة إلى الامتثال، كما تقول لولدك: إن كنت ابني فأطعني، وأنت تعلم أنه ابنك، ولكنك تستحثه على الطاعة، وتستثير كمان العاطفة فيه.

والمراد بالإيمان: كماله، أي: إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان يدور على هذا.<sup>(٢)</sup> وكما قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأفضل من الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».<sup>(٣)</sup>

### سابعاً- دفع ذرائع الإخلال بالتآلف:

فقد جاءت نصوص الوحيين بالنهي عن كل الذرائع التي توجب الاختلاف والتفرق والعداوة والبغضاء؛ وتؤدي إلى تفكك وحدة الجماعة، وضعف تماسكها، ومن ذلك:

١- عدم الاعتداء على المسلم في ماله أو دمه أو عرضه، تعظيماً لحرمة المسلم وصوناً لكرامته، وحفظاً لحقوقه، في دينه ونفسه وماله وأهله، وسعياً وراء إشاعة روح الأخوة بين المسلمين، وهذا ما بينه النبي ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك؛ ماله، ودمه، وأن يظن به إلا خيراً».<sup>(٤)</sup>

<sup>١</sup> - ينظر: التفسير الكبير: ٩٣/١٥، إرشاد العقل السليم: ٩٢/٣، روح المعاني: ١٦٤/٩، والتحرير والتنوير: ١٣/٩.

<sup>٢</sup> - ينظر: إرشاد العقل السليم: ٩٣/٣، روح المعاني: ١٥٢/٢٦.

<sup>٣</sup> - أخرجه مالك: الموطأ: ٧، كتاب حسن الخلق عن يحيى بن سعيد، ومسند أحمد: ١/١٦٥ ط الحلي، وسنن أبي داود: ٥ كتاب الأدب والترمذي: ٥٦، كتاب القيامة.

<sup>٤</sup> - سنن ابن ماجه: رقم (٣٩٢٢) باب حرمة دم المؤمن وماله، وتفسير ابن كثير: ٢٧١/٤ وقال: تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه.

٢- الظن الحسن بالمسلم والنهي عن السوء منه: وذلك دفعا لأسباب الفرقة والتنازع، وحماية لائتلاف جماعتهم، فلا يصلح القول بينهم بغير الأحسن، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَإِنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ الحجرات: ١٢.

ولم يكتف بالتوجيه إلى حسن التعامل والخطاب، وإنما حض على المبادرة بالدفاع عن سمعة الأخ المسلم، وحمايته في غيبته من مقالة تعيبه، والسعي في الدفع عنه مما يسيئه، فلا يكتفى بعدم الظن، وإنما أن يبادر إلى تكذيب ما سمع، ولا يسارع إلى تصديق الخبر والشائعة، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ النور: ١٢، فالواجب كما ظننت بنفسك الخير أن تظن بأخيك المؤمن خيراً. <sup>(١)</sup> والمبادرة والمسارة إلى رد مثله بفور سماعه وعدم التردد فيه، فضلا عن الوقوع في الظن السوء. <sup>(٢)</sup> لأن المؤمنين نفس واحدة فيما يجري عليهم ﴿بأنفسهم خيراً﴾، فإذا جرى على أحدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم. <sup>(٣)</sup> عن أبي بردة قال رضي الله عنه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا». <sup>(٤)</sup> فأوجب تعاطفهم وتعاضدهم فيما بينهم بالحق، فما يصيب جماعة من المسلمين يصيب غيرهم مثله، ويلحق بضره جماعتهم، لأن فيه إضعاف لقوتهم ووحدتهم، وتماسك مجتمعهم. وأخرج الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمنا بشيء يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال». <sup>(٥)</sup>

<sup>١</sup> - ينظر: التفسير الكبير: الرازي: ١٥٤/٢٣.

<sup>٢</sup> - ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣١/٥، روح المعاني: ١١٨/١٨ والتحرير والتنوير: ١٤٠/١٨.

<sup>٣</sup> - التفسير الكبير: ١٥٥/٢٣.

<sup>٤</sup> - صحيح البخاري: (٢٣١٤) باب نصرة المظلوم، ومسلم: (٢٥٨٥) باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

<sup>٥</sup> - مسند أحمد: ٤٤١/٣ برقم (١٥٦٨٧) عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه، وسنن أبي داود: ٦٨٧/٢ برقم (٤٨٨٣) باب من رد عن مسلم غيبة، قال الألباني: حسن. وبهذا المعنى روي في حديث ضعيف: «ما من امرئ يخذل امراة مسلما في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته، وما من امرئ ينصر امراة مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة

٣- ستر ما يتبادر من معائب المسلم: فنهى عن إشاعة ما وقع منه من سوء ستره عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النور: ١٩، وهذا تأديب لمن سمع شيئاً سيئاً، فقام بذمته منه شيء، أن لا يشيعه ويذيعه.<sup>(١)</sup> روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته».<sup>(٢)</sup>

فبين بهذه الآية ما ينبغي أن يتحلى به المسلمون من آداب تحفظ لهم وحدتهم، وتصون تماسك جماعتهم، ولم يكتف بالنهي عن إشاعة مقالة السوء والتحدث بها، فقد حرص على أن ينزع عنهم ما هو أبعد من ذلك، بأن يطهروا وجدانياتهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾؛ ليعلم أن من أحب بوجدانه نشر السوء من القول بين المؤمنين، ووافق بقلبه على إشاعة الأخبار التي تؤذي الأخ المسلم، وإن لم يشارك فيه، ولم ينطق به لسانه، فقد شارك في هذا الذم كما شارك فيه من فعله، ومن لم ينكره، وليعلم أن العقوبة يستحقها أهل هذه المقالة فيما أظهروه، وكذلك يستحقها من أسر محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين، فوجوب سلامة القلب من السوء كوجوب كف الجوارح والقول عما يضر بهم.

ولا شك أن ظاهر قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يفيد العموم، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فوجب إجراؤها على ظاهرها في العموم، وقرينة عمومها قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه صيغة عموم وجمع.<sup>(٣)</sup>

وكما أمر بستر ما انكشف من المعائب أو ما يظن أنه منها، فقد أمر بعدم تتبعهم لكشف معائبهم، والتجسس على أسرارهم في خلواته، فعن ثوبان، عن النبي ﷺ قال:

إلا نصره عز وجل في مواطن يحب فيها نصرته».<sup>(٥)</sup> مسند أحمد: ٣٠/٤ برقم (١٦٤١٥) قال الأرناؤوط:

ضعيف، وسنن أبي داود: ٦٨٧/٢ برقم: (٤٨٨٤) قال الألباني: ضعيف.

<sup>١</sup>- تفسير ابن كثير: ٢٩/٦.

<sup>٢</sup>- سنن ابن ماجه: (٢٥٣٦) باب الستر على المؤمن.

<sup>٣</sup>- التفسير الكبير: ١٥٩/٢٣.

«لا تُؤذوا عِبَادَ اللَّهِ ولا تُعَيِّرُوهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم، طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته». (١)

٤- النهي عن ذكر المسلم بما يكرهه: حتى شبهه بأكل لحم الأخ حال موته، كما قال: «وَلَا يَغْتَنَّبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» الحجرات: ١٢. وذلك لما تتركه من أثر سلبي على التآلف والتواصل.

وعدم التحدث بالسوء عن المسلم وإن كان على سبيل نقل ما سمع، فإن من أولويات ردود الفعل أن لا تتحدث بما سمعت عنه، ولا تتكلم في شأنه إلا بخير، كما قال سبحانه: «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ» النور: ١٦. وهذا تأديب آخر بعد الأول الأمر بالظن خيرا، فإذا ذكر ما لا يليق من القول بالمسلم وعلق بنفسه شيء من ذلك فلا ينبغي أن يتكلم به. (٢)

٥- التحذير من السعي في إيذاء المسلم: وتهدد من يسعى في سبيل إلحاق الأذى بأفراد المسلمين وجماعتهم قولا أو فعلا، فقال ﷺ: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كسا ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». (٣)

٦- عدم خذلان المسلم: فحذر من خذلانه إذا انتقص منه أو شهر به أحد من الخلق، فإن بخذلانه خذلان جماعة المسلمين، وتهوين كلمتهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اغتیب عنده أخوه المسلم فنصره، نصره الله في الدنيا والآخرة، ومن ترك نصرته وهو يقدر عليها، خذله الله في الدنيا والآخرة».

وعن جابر بن عبد الله وأبي أيوب الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا

١- مسند أحمد: ٥/ ٢٧٩.

٢- تفسير ابن كثير: ٦/ ٢٩.

٣- مسند أحمد: ٤/ ٢٢٩ برقم (١٨٠٤٠) حديث المُسْتَوْرِدِ، قال الأرْنَوط: حسن، وسنن أبي داود: ٦٨٦/٢ برقم (٤٨٨١) باب في الغيبة، قال الألباني: صحيح.

خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته»<sup>(١)</sup> بكل هذه القيم التربوية وغيرها أحاط القرآن الكريم علاقة المسلمين فيما بينهم، رعاية لجماعتهم، وصيانة لوحدهم، ووقاية لهم من الانحدار نحو التناحر والتخاصم الذي يذهب بكلمتهم، ويمزق ريحهم.

## المبحث الثاني

### مقومات التكامل الوجداني بين المسلمين

لا شك بأن الوحدة الكاملة بين المسلمين هي غاية سامية، وهدف ينشده كل مسلم، وديانة يسعى كل مؤمن إلى تأديتها بحسب الطاقة، وحلم يعيش في الوجدانيات، ويأخذ بالمشاعر، لكنه من حيث الواقع غير ممكن إيجاده بشكله الذي يريده الإسلام وفق طبيعة الحياة العامة اليوم، وأن البديل الممكن اليوم هو التكامل الفعال بين المسلمين دولاً وجماعات وتكتلات، والتعاون في قنوات الحياة المختلفة،

١- المعجم الأوسط: الطبراني: ٤٦٤/١٨ ومجمع الزوائد: ٢٠٧/٧ برقم (١٢١٣٨) وقال الهيثمي: إسناده حسن.

وبما يؤدي إلى التواصل بين جماعاتهم، والتقارب بين اتجاهاتهم، والاحتضان للكل بين مذاهبهم، بحيث يتولد عنه الشعور المشترك بوحدة أمتهم، وائتلاف جماعتهم، وتعاونهم في مسيرتهم وأهدافهم المشتركة، وهذا فيما يبدو أن تحقيقه يحتاج إلى قدر من المرونة، وحسن الظن بالأخ الآخر، وصدق النوايا، وسأبين باقتضاب أهم مقومات التكامل الوجداني بين المسلمين:

### أولاً- تقرير مبدأ إمكانية الاتفاق مع الاختلاف:

#### أ- الاختلاف سنة قدرية وضرورة حياتية:

إن الاختلاف النظري سنة طبيعية في جلبة البشر، ومن مقتضى اختلاف المدارك وتفاوت العقول في النظر، بل هو ضروري وغير ممكن إزالته كما قال سبحانه: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ المائدة: ٤٨.

وبين القرآن أن الاختلاف أمر واقعي وضروري لغرض تحقيق الابتلاء.<sup>(١)</sup> وأن إزالة الاختلاف بالقوة غير ممكنة، وغير صحيحة؛ لأنها تعارض معنى الابتلاء، فالاختلاف واقع بمشيئة الله<sup>(٢)</sup>: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود: ١١٨-١١٩، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يقول الطبري:<sup>(٣)</sup> «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: معنى ذلك، ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان وملل شتى، إلا من رحم ربك فأمن وصدق رسله». فلقد قضت سنة الله في خلقه أن يختلفوا، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، وجماعة واحدة، على ملة واحدة، ودين واحد، ومذهب واحد، ولكنه شاء ألا يكونوا أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، شاء أن تنتوع استعداداتهم واتجاهاتهم، ويتحملوا تبعه ما يختارون بمشيئته.

<sup>١</sup> - فتح القدير: ٤٨/٢.

<sup>٢</sup> - الجامع لأحكام القرآن: ١١٥/٩.

<sup>٣</sup> - جامع البيان: ١٤٢/١٢.



نعم إن من طبيعة الناس أن يختلفوا، وأن الاختلاف أصل من أصول الخلق؛ لأن الاستخلاف في الأرض يحتاج إلى وظائف متنوعة، واستعدادات شتى من عناصر مختلفة، كي تتكامل جميعها وتتناسق، وتؤدي دورها في العمارة والبناء، فلا بد من تنوع في النظر والمواهب والمناهج والتصورات والاستعدادات يقابل تنوع الحاجات والإمكانات.

وهذا المبدأ إذا تخلق به الإنسان أصبح لا ينظر إلى هذا الاختلاف وكأنه أمر عدواني يثير الحقد والكراهية ويجب أن يزول بكل الطرق، وإنما ينظر إليه نظره إلى أمر طبيعي تتفاوت فيه العقول والمدارك بين الخطأ والصواب.

ومع ذلك فإنه ينبغي أن يحدد نوع الخلاف، وما يمكن الاختلاف فيه مما لا يمكن، إذ الخلاف قد يسوغ وقوعه في مسائل، ولا يسوغ وقوعه في مسائل، بحسب طبيعة الدليل، وبحسب ما يترتب عليه من آثار على الجماعة، ولذلك وجدنا خلافاً قد حصل بين الصحابة في مسائل عقدية، كما حصل في مسائل عملية، يقول ابن تيمية: <sup>(١)</sup> «أما ما يشبه ذلك من وجه دون وجه؛ فهو ما تنازعوا فيه مما أقروا عليه وساغ لهم العمل به، من اجتهاد العلماء والمشايخ والأمراء والملوك، كاجتهاد الصحابة في قطع اللينة وتركها، واجتهادهم في صلاة العصر لما بعثهم النبي إلى بني قريظة، وأمرهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، فصلى قوم في الطريق في الوقت، وقالوا: إنما أراد التعجل لا تقويت الصلاة، وأخرها قوم إلى أن وصلوا وصلوها بعد الوقت، تمسكا بظاهر لفظ العموم، فلم يعنف النبي ﷺ واحدة من الطائفتين، وقال: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر).<sup>(٢)</sup>

وقد اتفق الصحابة في مسائل تنازعوا فيها على إقرار كل فريق للفريق الآخر على العمل باجتهادهم، كمسائل في العبادات والمناكح والمواريث والعطاء والسياسة

<sup>١</sup> - مجمع الفتاوى: ١٢٢/١٩ - ١٢٣.

<sup>٢</sup> - صحيح البخاري: (٦٩١٩) باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ومسلم: (١٧١٦) باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ.

وغير ذلك، وحكم عمر أول عام في الفريضة الحمارية بعدم التشريك، وفي العام الثاني بالتشريك في واقعة مثل الأولى، ولما سئل عن ذلك قال: تلك على ما قضينا، وهذه على ما نقضى. وهم الأئمة الذين ثبت بالنصوص أنهم لا يجتمعون على باطل ولا ضلالة، ودل الكتاب والسنة على وجوب متابعتهم.

وتتازعوا في مسائل علمية اعتقادية، كسماع الميت صوت الحي، وتعذيب الميت ببقاء أهله، ورؤية محمد ربه قبل الموت، مع بقاء الجماعة والألفة».

لذلك ينبغي النظر إلى الاختلاف الفكري نظرة موضوعية على أنه أمر طبيعي، ما دام لا يؤدي إلى التنازع والتحزب المتعصب وإلغاء الآخر؛ لأن الطبيعة الخلقية والظروف الاجتماعية والبيئية الخاصة بالشخص أو العامة في المجتمع كلها تؤثر على نمط التفكير فيجرح كل طرف إلى ما لا يجرح إليه الآخر.

### ب- الاختلاف بين المشيئة الكونية والشرعية:

الاختلاف سنة كونية وقدر واقع لا محالة بمشيئة الله الكونية، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هود: ١١٨-١١٩. وجاء في السنة قوله ﷺ: «وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». وقد يقول البعض: إذا كان الاختلاف أمر قدر كوني، لازم الوقوع، فما فائدة الدعوة إلى العمل على الائتلاف والوحدة؟

فنقول: إن مما ينبغي أن يفهم، هو التمييز بين الأمر الشرعي والأمر القدري الكوني، أو بين ما هو مطلوب منا وما هو واقع بنا، فالمطلوب منا هو العمل على الائتلاف، وما هو واقع بنا هو أن الفرقة والاختلاف واقعان لا محالة، فإذا قمنا بما هو مطلوب منا، كنا قد امتثلنا للأمر الشرعي لدفع الأمر القدري الواقع بنا، وإلا لبطل أصل دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وإذا كان الاختلاف والتنازع غير ممكن رفعه بالكلية، فممكن تكثير أتباع الجماعة، وإخراج بعض أفراد التفرق، وتقليل

آثار الاختلاف. وكما قال ابن تيمية: <sup>(١)</sup> «لا يقال: فإذا كان الكتاب والسنة دلا على وقوع ذلك فما فائدة النهي عنه؟! لأن الكتاب والسنة قد دلا على أنه لا يزال طائفة في هذه الأمة متمسكة بالحق إلى قيام الساعة، وأنها لا تجتمع على ضلالة، ففي النهي عن ذلك تكثير لهذه الطائفة المنصورة».

ولذلك فإن القدر الكوني إن كان شرا فيجب أن يسعى الإنسان للخروج منه وعدم الوقوع فيه، كالكفر فهو قدر كوني حكم الله بوجوده كونا، ومع ذلك واجب على كل إنسان أن يجتنبه، وكذلك المعاصي، «كل ابن آدم خطأ وخير الخطائين التوابون» <sup>(٢)</sup>. وقد أمرنا الشرع باجتتاب المعاصي، وهي واقعة منا حتما، وكل ذلك مقدر شاء الله وقوعه كونا، بناء على علمه باختيار الإنسان، فالله عز وجل وهب خلقه مشيئة واختيارا خاضعة لمشيئة الله مع علمه باختيارهم، وكتابته له، وتقدير كونه منهم.

فشأن الأقدار ألا نستسلم معها، وإنما نستسلم لها، لأن الاستسلام معها وترك الحركة والحيلة عجز، والله يلوم على العجز، فأنت تدفع قدر الله بقدر الله من أجل الله، وكما يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون مستسلما مع القدر. <sup>(٣)</sup>

ودفع القدر بالقدر نوعان:

الأول: دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه، ولكنه لم يقع بأسباب أخرى من القدر تقابله فيمتنع وقوعه، كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.  
الثاني: دفع القدر الذي وقع واستقر بقدر آخر يرفعه أو يزيله، كدفع قدر المرض بالتداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان. <sup>(٤)</sup>

<sup>١</sup> - اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٤.

<sup>٢</sup> - مسند أحمد: رقم (١٢٥٧٦) حديث أنس بن مالك، والترمذي برقم (٢٤٢٣) وابن ماجه برقم (٤٢٤١) باب ذكر التوبة.

<sup>٣</sup> - مدارج السالكين: ١/ ١٩٩.

<sup>٤</sup> - المصدر السابق: ٢٠٠.

فالاختلاف قد يكون قدرا كونيا، فإن كان مذموما فقد أمرنا الله تعالى بالعمل للخروج منه بالقدر الشرعي، لذلك فإن ما هو واقع قدرا كونيا نسعى للخروج منه بالقدر الشرعي، فلا نستسلم له بل نقاومه بالقدر، فإن لم نقدر على إزالته، خففنا من آثاره والخروج بأقل أضراره.

فالاختلاف - ما دام اختلاف تعارض ينقض بعضه بعضا - شر لا يسلم منه إلا من كان معه الصواب، فإذا توزع الصواب بين المختلفين كان معهم من الخير والبعد عن الذم بمقدار ما معهم من الحق، ومع ذلك يعذر فيه المجتهد المخطئ بل يثاب لإرادته الخير وقصده، ولهذا يسلم من آثار الاختلاف المذموم المجتهدون الذين استقرغوا وسعهم في معرفة الحق والعمل به.<sup>(١)</sup>

وأما في واقع العمل الإسلامي؛ فإذا كان الاختلاف من قبيل التنوع كأن يتخصص كل فريق أو جماعة في عمل، فهو اختلاف صوري وهو مطلوب، وينبغي أن يكون اختلاف المسلمين في العمل الإسلامي من هذا القبيل، إن لم يكن من قبيل اختلاف التنوع، فالهدف الأسمى واحد، ومجالات العمل متنوعة، والساحة تسع الجميع بل تحتاجهم.

أما إذا كان الاختلاف اختلاف تحزب وتعصب يمنع التعاون والتعاقد وسماع النصيحة من الآخر، فهو اختلاف مذموم. لا سيما وأن الأكثر منه يقع في مسائل اجتهادية أو فرعية، المخالف فيها معذور، ومثل هذا الخلاف لا ينبغي أن يخرج بالناس إلى ساحة احتراب وتناحر، بل لأصحابه في صحابة رسول الله أسوة حسنة، فمع مخالفة بعضهم لبعض بقي إقرارهم بفضل ذوي الفضل وتوقيعهم مع عمل كل برأيه وسعيه لنشره.<sup>(٢)</sup>

## ثانيا- التفريق بين الممكن وغير الممكن:

<sup>١</sup> - الاختلاف في العمل الإسلامي الأسباب والآثار: ٢١.  
<sup>٢</sup> - ينظر: الموسوعة الفقهية: ٢/ ٢٩٣-٢٩٤ والاختلاف في العمل الإسلامي: ٢٨.

فمن الممكن تكامل هذا التنوع وتناسقه في التواصل والبناء، وتضييق دائرة الاختلاف، وهو سنة أمرية شرعية، بأن تجتمع المسلمون في إطار من التنسيق والتكامل والحوار، على قواسم مشتركة بينهم.<sup>(١)</sup> فيقبل الجميع ما يقوي ويقارب، ويرفض الجميع ما يفرق ويضعف، وهذا يحتاج قدرا من المرونة، لأن الهدف الأسمى يقتضي ذلك. ويكون هدفه وغايته تحقيق الاتحاد التكاملي والتعاوني الفعال.

لكن من غير الممكن تجميع الاختلاف ونفيه، كما أن من غير الممكن الاتفاق على جميع مسائل الاختلاف، وصب المذاهب أو المجتمعات كلها في قالب فكري واحد، ومنهج واحد؛ لأن هذا يتناقض مع سنة الحياة، وتنوع الحاجات والإمكانات، فالتنوع والاختلاف المذهبي إذ هو قدر كوني، وسنة من سنن الحياة، فإن فيه مصلحة معتبرة للأمة إذا قام على سوقه، وهنا لا بد من ملاحظة أمرين مهمين ينبغي تفاديهما:

١- تجميع القضايا جريا وراء البحث عن الوحدة أو التقارب: فإن في مثل هذا إبقاء على مادة التفرق، إن سكنت حيناً، ثارت في أحيان أخرى، وكشفت عن نفسها في ألوان من السلوك العنيف، وصور من الفكر الحاد، مما يقتضي مع مثل هذه القضايا الخلافية حقيقة أن يجري فيها ومعها حوار هادئ ومتمرن، يكون الهدف فيه إيجاد أرضية فكرية متقاربة، وضوابط سلوكية مشتركة، تتضبط بها الخطابات الموحدة، والسلوكيات المتناسقة في إطار من التكامل والتواصل الفعال.

٢- التضييق على إمكانية التقارب بزعم الثبات على المواقف: فإن في مثل هذا خروج على سنن التشريع، وقواعد الاجتماع الديني، وهو شذوذ عن الجماعة، وتصادم مع أهداف دعوة الإسلام.

١- الحوار الإسلامي بين الدواعي والمعوقات: مجلة البيان (٢١٦٤ س ٢٠٠٥): ٤٢.

فالتوحيد بين المسلمين أمنية غير ممكن تحقيقها؛ لأنه يخالف السنن الكونية للحياة والبناء والتدافع، ويتصادم مع طبيعة الحياة والفكر البشري والإمكانات وطبيعة النصوص، لكن من الممكن تقليل وجوه الاختلاف، وتخفيف حدته، وتحديد آثاره، وتحقيق تكاملهم واتحادهم.

والاحتضان بشكل فعال في كافة المجتمعات قد تعترضه عقبات هنا أو هناك لأسباب متنوعة، لكنه يمكن تكثيف العمل نحوه، حتى يأتي أوانه المنشود عند توافي الظروف المناسبة، وأما التعايش والتقارب والتواصل فهو أمر ممكن التحقيق الآن إذا صدقت النوايا، وحسن القصد.

### ثالثاً- الحوار والتدرج فيه:

إن اللجوء إلى الحوار في سبيل حل القضايا العالقة بدلاً عن الصدام، هو في حد ذاته تعبير عن نضج فكري ووعي حضاري، وتصميم على البحث عن أقوم السبل لتجنب الخسائر، ولتفادي المخاطر، وللتغلب على المشكلات، ولمعالجة الأزمات أو إدارتها بعقل منفتح، وبضمير حي. والحوار الذي ينتظر أن تقوم عليه الغايات المشودة هو الحوار الشامل والفعال، وأجد أنه ينبغي أن يعتمد الوسائل الآتية:

### أ- الحوار في الدائرة الأخص:

إن كل مذهب من المذاهب الإسلامية فيه من التعدد في الاتجاهات والمناهج والتصورات والانتماءات الفكرية الشيء الكثير، فإذا يتشعب المذهب السني في فقهه إلى مالكية وحنفية وشافعية وحنابلة ولا مذهبية مقيدة، فإنه يتشعب من الناحية العقدية والكلامية إلى سلفية وأشعرية وماتريدية ومعتزلية أو عقلية، ومن السوكية والعملية إلى صوفية متنوعة وغير صوفية، ومن الناحية الحزبية المنظمة إلى جماعات متعددة، ثم إن كلا من هذه وتلك في داخلها الخاص تشعبات وتشظيات، ويجري بينها استقطابات واختلافات، ومثل ذلك في داخل المذاهب الكبرى الأخرى، وقد يصل الاختلاف الفكري في التصور والمنهج حدا بعيدا، ومنه التباين بينها في

طبيعة نظرتها وتصورها عن المذاهب الأخرى، وهذا يستدعي لقاءاتها أولاً فيما بينها، وتحاورها في سبيل التقارب بينها، وانفاقها على أسس ومعايير مشتركة متفق أو متقارب عليها للحوار والتقارب مع المذاهب الإسلامية الأخرى. إذ بدون ذلك تبقى حالة الاتهامات المتبادلة للمذاهب قائمة، وأسباب التعصب والتفرق متحركة، فمن غير الممكن بناء بيت إسلامي متماسك على أركان متخلخة في نفسها.

وإن هذه الدائرة الخاصة هي أول ما يجب التحاور فيها، والتقارب بين المنتميين إليها، ثم ينطلق منها في التكامل والتقارب مع الدوائر الأخرى، التي تجتمع في دائرة أوسع منها، هي دائرة الملة والقبلة.

وإذ أننا في صدد الكلام عن الحوار الخاص في الدائرة الخاصة نود التنبيه هنا إلى أن كل دائرة من هذه الدوائر الإسلامية هي تعيش في وسط متعدد الانتماءات، ومختلف المرجعيات الفكرية، فهناك الملتزم بمرجعية مذهبيته، وهناك الذي يعيش على هامشها، والمتباعد عنها، وهناك الذين اتخذوا مرجعات فكرية أخرى، وهم متوزعون على بقع جغرافية متميزة، تحكمها أنظمة وتشريعات خاصة، فلم تعد كلها تنتمي فكراً وقيماً وسلوكاً إلى المذهبيات الكبيرة المعروفة، وإنما تشققت إلى فرق واتجاهات مختلفة المناحي، ومتنوعة المشارب، تمت خارطتها من أقصى اليمين تميماً، إلى أقصى اليسار تنطعاً.

ولما كان الحال هكذا؛ كان هناك حاجة في الحوار إلى أن تتسع دوائره، لا سيما في ظل مثل تلك التحديات الحضارية الداخلية منها والخارجية، ومتابعة التسارع الحضاري، والتدفق المعرفي، والبناء الذاتي، مما يستدعي أن يفتح الحوار في المرحلة الراهنة على آفاق العصر، ولن يتيسر هذا إلا بالأخذ بأمرين مهمين:

أولهما: الدخول في حوار مع العصر، بما يناسب من طرائق وأساليب.

وثانيهما: تحصين الذات بإصلاح أحوال الفرد والمجتمع إصلاحاً منطلقاً من أصول الشرع ومقاصده، ومحافظاً على الثوابت، ومستوعباً لحاجات العصر.

فيكون هناك حوار متعمق هادف في دائرة (الحوار الوطني)، و(الحوار المذهبي الخاص) من جهة، و(الحوار العربي العربي)، و(الحوار الإسلامي الإسلامي)، و(الحوار الإسلامي القومي) من جهة ثانية، وهكذا تتسع الجملة الحوارية، دون إغضاء ولا إلغاء ولا إلباء.

ومعه تتسع دائرة التواصل والتقارب حتى تصل الغاية المنشودة، بهدف رصد عوامل تفاقم الأوضاع الاجتماعية والقومية والدينية واحتوائها، والعمل على تدعيم سبل الاستقرار والتضامن والتلاحم، ومواجهة التحديات المتسارعة الخطيرة، وحتى تصبح الحوارات الوطنية في العالم العربي والإسلامي بمثابة نقطة تحوّل وانطلاق إلى آفاق جديدة في واقعنا السياسي والاجتماعي وفي الميادين كافة. وهذا الضرب من الحوار الذي يمكن أن يصطلح عليه بالحوارات الداخلية أو الدائرة الخاصة، هو خطوة أولى نحو الحوار مع الخارج، لأنه يقوي النسيج الوطني من جهة، ويكسب المجتمع مناعة أصبحت اليوم ضرورية للتعامل مع العالم المحيط بنا، من جهة ثانية؛ لأننا لا يمكن أن نفلح في الحوار مع العالم، ما لم نفلح في الحوار مع أنفسنا.

ولا ينبغي بل ولا ينسجم مع مقتضيات الحاجة وتحديات الواقع أن يبقى كل من الإسلاميين والقوميين والعلمانيين الذين يعيشون في بلد واحد وأمة واحدة، وغالبا يجمعهم دين واحد متوقعون على أنفسهم، منكمشون عن بعضهم، تعشش في أذهان البعض منهم الأحقاد والريبة من الآخر التي تتغذى عند البعض من أحداث التاريخ، وعند البعض الآخر من أوهام التصورات الخاطئة، نتيجة جهل كل منهم بما عليه الآخر، فتستشري التقاطعات والتناقضات والاستقطابات التي لا تخدم أيا من الأطراف، وقد تؤدي تراكماتها أن تنتفس أحيانا في شكل عنف، وقد تصل إلى حد النفي والتطهير.

ولن يتجاوز ذلك إلا بثقافة الحوار المكثف والموضوعي المنصف، فإن الآراء والأفكار تنضج في محك النقد والحوار، على نحو ما كانت عليه العهود الإسلامية الأولى حينما كانت المذهبية والفكر الإسلامي في حال من النضوج المأسس على



ثقافة الحوار العلمي الحضاري الرفيع، تتفاعل في ظلها الآراء بين الفرق والمذاهب، تفاعلاً تتعدل به وتتقارب، فغدت معه في حال من الثقة والقوة الحضارية والثقافية اتسعت لاستيعاب الأحوال المستجدة عبر المكان والزمان، واستطاعت أن تواجه التحديات الحضارية التي جابهت الأمة بكفاءة عالية، ولما قعدت وانكفأت على ذاتها في العصور المتأخرة، ظلت عاجزة عن مواجهة التحديات، فكان ذلك أحد أهم أسباب التدهور والضعف.

### ب- الحوار في الدائرة الأعم:

إن الحوار هو السبيل الأمثل للتقارب بين المختلفين، لأن به يتحقق فهم الآخرين، ومسوغات مواقفهم، وتتوضح المشكلات، وتزال الهواجس والظنون، وكلما توسعت دوائره توسعت دائرة التقارب، وضائق دائرة الفواصل والاختلاف. ولكن ينبغي أن يضبط مساره بمنهجية علمية صحيحة، حتى يؤتي المرجو منه، ولعل من أهم العوامل في ذلك:

#### ١- العناية بنقاط الاتفاق:

من المسلم أن هناك نقاطاً مشتركة متفق عليها بين الأطراف المتحاورين، وهذه القضايا المشتركة بين المذاهب الإسلامية كثيرة، فهي متفقة من حيث المبدأ في أصولها ومناهجها العامة وغاياتها ومظاهرها الدينية في العبادات والشعائر والأعياد والعبادات والآداب ونحوها.

وإن البدء بالنقاط المشتركة وتحديد مواضع الاتفاق بين المتناظرين المختلفين، وهي الحد المشترك من النقاط المتفق عليها بينهما، والتي يسلم بها الطرفان، فالمحاور الناجح هو الذي يظهر مواطن الاتفاق. كما هو أسلوب الخطاب القرآني، فقد خاطب أهل الكتاب قائلاً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ آل عمران: ٦٤، لأن البدء بالأمور المتفق عليها والنقاط المشتركة يساعد على تقليل

الفجوة، ويوثق الصلة بين الطرفين، ويعيد الحوار هادئاً هادفاً، ويسهل تحرير محل النزاع، وتحديد نقطة الخلاف، ويفيد في حسن ترتيب القضايا والتدرج في معالجتها.<sup>(١)</sup>

أما إذا كان البدء بذكر مواضع الخلاف وموارد النزاع فإن فرص التلاقي تقل، وفجوة الخلاف تتسع، لشعور الآخر بنظرة صاحبه ابتداءً بأنه خصم ومخالف، وأن بينهما فجوة في الفكر أو الاعتقاد، مما يؤدي إلى أن تتغير القلوب، وتستثار النفوس للغلبة دون النظر إلى صحة الفكرة.

لذلك فإن في العناية بنقاط الاتفاق فوائد عملية عدة، من أبرزها:

- التدرج وحسن ترتيب القضايا على بعضها.
- تحرير محل النزاع، وتحديد نقاط الاختلاف الأساسية وحجمها.<sup>(٢)</sup>
- تعزيز الثقة وبناء جسور التفاهم، وتقليل الفجوة.

إن الحوار الناجح الذي ينشد تحقيق أهدافه المرسومة له، ينبغي له أن يبدأ بتحديد أكبر قدر ممكن من مواطن الاتفاق والعوامل المشتركة، للتركيز عليها أولاً، وإظهارها ودعمها بالتأكيد عليها بشتى الوسائل والأساليب، لغرض ترسيخ جذورها في الوعي الشعبي، وتغذيته باستمرار بعوامل الاتفاق والاقتراب، بقصد إيجاد شعور مشترك بين أتباع المذاهب والجماعات كافة بقوة الرابطة الواحدة التي تجمعهم، وحاجة بعضهم إلى بعض، وأن تكاملهم وتواصلهم أقرب من حالات تفرقهم وتنازعهم. ويمكن ذلك باعتماد الآتي:

١- نشر البحوث والدراسات الموضحة لوجوه الاتفاق، وبأيد أمينة مؤثرة في بيئتها وواقعها.

٢- تدريس وجوه الاتفاق في الجامعات والمؤسسات العلمية والدينية المختلفة.

<sup>١</sup> - آداب الحوار: ١٨.  
<sup>٢</sup> - الحوار آدابه وضوابطه: ٢٨٩.

٣- إذاعتها وتكرارها بين الأتباع عبر الوسائل المختلفة، ومنها وسائل الإعلام، والتركيز عليها.

٤- توجيه الطلبة في الدراسات العليا والمتخصصين باعتماد الدراسات المقارنة بين كافة الفرق والمذاهب الإسلامية في دراساتهم التي تسمح بذلك، باعتبارها كلها اجتهادات لمجتهدين مسلمين.

## ٢- تحرير محل النزاع للتجاوز فيه:

لأن تحديد موطن الخلاف والنزاع يختصر الوقت في الوصول إلى الهدف، ويحقق المقصود بأيسر الطرق وأقربها، ولا يحول اللقاءات إلى مجرد لقاءات تجميلية وإعلامية. ويكون ذلك من خلال النظرة الشمولية في قضايا الخلاف، من خلال جمع كل ما ورد في المسائل الخلافية، أو فيما يخص المسألة الواحدة لتحريرها تحريراً جلياً، ثم تحديد ما ينبغي التجاوز فيه، ويكون مبنى ذلك الأدلة المتفق على اتباعها والتسليم لها، وألا ننساق وراء شيخ واحد نقده، أو عالم واحد نعظمه ولا نلتفت إلى ما سواه، وإلا دخلنا في محذور قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

ومحل الخلاف الذي نحن بصدده يمكن تحريره في ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: مسائل لا يبنى عليها عمل، فالخوض فيها من التكلف الذي نهانا عنه الشرع، فلا فائدة عملية من البحث والعلم بها، ولا يضر الجهل بها، مع أنها تجدد مادة للخلاف غير مبرر إثارته. مثل الخلافات التي حدثت في عصر الصحابة رضوان الله عليهم، فلا يسمح بامتدادها إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، لأنهم اليوم ليسوا مسؤولين عنها،<sup>(١)</sup> ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ١٣٤.

١- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين: محمد الغزالي: ١٢٩.

الوجه الثاني: مسائل عملية مختلف فيها غير مشكلة، فهناك قضايا اختلاف لا تمثل مشكلة حقيقية في طريق التواصل الإسلامي؛ لأنها لا يبني عليها إلغاء للآخر، ولا تدعو إلى التعصب أو البغضاء، ومن هذا القبيل الاختلافات الفقهية الاجتهادية، وبعض القضايا الفكرية التفصيلية الفرعية التي تدخل في باب علم الكلام، فإن الخوض والتركيز في محاولة التقريب عليها يوسع دائرة الاختلاف بدلا من أن يضيقه، فضلا عن كونه يناقض سنة الحياة وقانون الاجتماع، وطبائع الفكر، وهذا النوع من الاختلاف يجري تحت القاعدة الفقهية الذهبية: (رأي صواب يحتمل الخطأ، ورأي المخالف خطأ يحتمل الصواب)، وقاعدة: (ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه). فغاية ما يحكم على المخالف فيه أنه مخطئ.

الوجه الثالث: مسائل عملية مختلف فيها مشكلة، وهي كل قضايا الاختلاف التي تعد مشكلة في طريق التقارب المذهبي والفرقي، من التي يبني عليها إلغاء وتعصب وصراع، كالتكفير والتضليل والتفسيق، والتأليب على الآخر ونحوه، وهذا النوع يجب الاعتراف بأن كتب التراث وما يبني عليها مزدحمة به.

وهذه القضايا ينبغي أن يبني الحوار فيها على المصارحة التامة، بالأساليب وآداب الخطاب المعتمدة في القرآن الكريم (الحكمة والموعظة الحسنة)، دون الجدل، مع حسن الظن، والابتعاد عن تحميل الأقوال ما لا تحتمل، أو إلزامها بما لا تلزم، والعمل على توجيه ما ورد منها في كتب التراث على أحسن محامله ما أمكن، وتضييق الدائرة فيها، ومن ثم العمل على تصفيتها واجتبابها، وإظهار أقوال المعتدلين في المذهب المعين، والتركيز عليها وإذاعتها بين العامة والمتعلمين، وتبيين وجه الخطأ فيما ورد من شطط المغالين.

### ٣- البدء بالأهم ثم المهم:

فلا ينبغي في الحوار أن ينشغل المتحاورون في مسائل ليست مشكلة، أو لا تمثل عقبة حقيقية دون التقارب والتواصل والتفاهم، ففي ذلك إهدار للوقت فيما لا نتائج عملية فيه على مجمل مسيرة التقارب، ولا يعني إهمالها، لكن أن لا تكون هي

مداره ومبتدأه، وإنما المهم أن يبدأ بالأهم من القضايا الخلافية ثم المهم، لأن معرفة الأهم والبدء به يختصر الطريق، ويوصل إلى الهدف بأيسر سبيل.<sup>(١)</sup>

وفي كل حوار لا بد فيه من ربط السقف بالقضية التي يجري فيها التباحث، فالثوابت والقطعيات المعلومة، والتي سماها الأولون المعلوم من الدين بالضرورة تظل غير قابلة للتغيير والتبديل والتنازل؛ لأن المعلوم من الدين بالضرورة والثوابت العقدية هي ثوابت العمل الإسلامي؛ وهو التي تحدد شخصية الجماعة المسلمة، لكن لا ينبغي أن نوسع هذه الدائرة بالاجتهادات الظنية؛ لأنها تمثل خطراً، وتوسيعها ضد مصلحتنا ولن يكون مفيداً؛ أما ما بعد ذلك من اجتهادات فكرية وعقلية ومنهجية، وتفصيلات بعض القضايا الخلافية التي يمكن أن يندرج الخلاف فيها تحت باب الاجتهاد والرأي، فلا يأس بها ما دام أنها لم تصطدم بقواعد شرعية واضحة.

ويكون هدف الاجتماع هو الذي يحدد الأولوية؛ فإذا كان الاجتماع لمقاومة العدو فالمراعى هنا هو إحداث النكايه وتقديم ما يقوّي الشوكه ويحقق النصر، فنجتنب ما قد يشق الصف ويثير التنازع المفضي إلى الفشل وذهاب الريح كما ذكر الله تعالى. أما إذا كان الاجتماع لغرض الإصلاح الاجتماعي مثلاً فيكون الاهتمام بثوابت الفضيلة والقيم، وتجنب ما قد يفضي إلى الفساد والرديلة.<sup>(٢)</sup> وإذا كان الهدف هو التقارب والتكامل بين المذاهب والاتجاهات الإسلامية فكراً بصفة عامة فتكون القضايا التي تؤدي إلى العداة والإلغاء هي الأهم.

وأهم قضية هنا يجب البدء بها وإزالتها من طريق الخلاف والافتراق هي قضية (التكفير)، لما يترتب عليها من الإلغاء للآخر والتعصب والصراع، وبدون إبعاد هذه المشكلة من طريق التقارب والتواصل، فكل ما سواها لا قيمة له، ودوران في حلقات مفرغة، لأن الحوار معها يعني حوار بين مسلمين وغير مسلمين، وهو متناقض مع

١- الحوار آدابه وضوابطه: ٢٩٦.

٢- ينظر: مجلة البيان: العدد ٢١٦ سنة ٢٠٠٥م.

أصل برنامج التقارب والتواصل بين المذاهب والاتجاهات الإسلامية، مع أننا نجد عددا غير قليل من كتب التراث مليئة بما يوحي بذلك أو يصرح به.

نعم إن الميدان الذي كان ولا يزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة - التي هي فريضة إلهية وتكليف قرآني- هو ميدان بعض الاجتهادات المذهبية في القضايا الكلامية الإسلامية. وعلى وجه التحديد أحكام التكفير والتفسيق، التي نجدها في تراث هذه المذاهب، والتي ارتبطت توها أو إيهاما بقضايا تلتصق بأصل المذهب هذا أو ذاك.

إن اختلاف مذاهب الفقه، لا يمثل مشكلة تقصم وحدة الأمة الإسلامية. لكن الاجتهادات التي تكفر المسلمين من المذاهب الأخرى، وبعض المواقف الحادة التي تدفع إلى الاتهام بالانحلال من العقيدة، ومن ثم تؤدي إلى الأحكام الإلغائية المتبادلة، هي التي تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات.

فالعامل الذي ينبغي السعي نحوه، والذي يمثل الميدان الحقيقي للجهاد الفكري المطلوب، هو الذي يوحد الأمة في الأصول والثوابت، وفي أمهات العقائد والمسائل الفكرية. وهذا هو ميدان علم الكلام. هو نزع الألغام الفكرية التكفيرية، التي تقصم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذهب من المذاهب، لأن التكفير هو نفي للآخر. وهو خطر لا علاقة له بالفقه، الذي هو علم الفروع، ولا بالاجتهادات والاختلافات الفقهية، التي هي ظاهرة صحية، تثمر الغنى والثراء في الأحكام، واليسر والسعة للأمة كلها في تطبيق هذه الأحكام.

ذلك هو الميدان الحقيقي للجهاد الفكري في التقريب بين المذاهب الإسلامية.. إنه علم الكلام.. علم الأصول في الاعتقاد.. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية التي تتخصص في الفروع، واختلافاتها رحمة واسعة، ولا تقصد الود بين المسلمين.<sup>(١)</sup>

#### رابعا- تكثيف العمل والاستمرارية فيه:

<sup>١</sup> - ينظر: مقال د. محمد عمارة في: مجلة الهلال: عدد شعبان، سنة ١٤٢٣هـ.

إن متابعة العمل الذي يراد تحقيقه وتكثيف الجهود فيه من أهم مقومات نجاحه، ولا سيما في الأمور والقضايا المهمة والخطرة، لأن عوامل التغيير في واقع المسلمين الفكري والسلوكي وبما ينقله من حالة الاختلاف والانقسام، إلى حالة التواصل والانسجام، يحتاج إلى عمل متواصل، وليس هبات تدعو إليها مقتضيات مرحلية ثم تنتهي، وبرامج مكثفة، وليس حلولاً جزئية سرعان ما تتصادم مع غيرها، ولا سيما مع وجود عوامل كثيرة مؤثرة سلباً في التفكير والواقع. ولعل من أهم ما يمكن اعتماده لتحقيق هذا المقوم، يتلخص بالآتي:

١- التخصصية في المؤتمرات العلمية: وذلك بعقد مؤتمرات يناقش فيها موضوع واحد من القضايا العالقة، أو الخادمة للهدف، وعدم تشعب الموضوعات، لأن تعدد القضايا المطروحة للنقاش، تفرق السبل عن تقرير القضايا المهمة، وتضعف الجهود في تثبيت ما يبني عليه غيره، ولعل هذا من أهم الأمور اللازمة.

٢- تنويع وجوه ومجالات العمل، من خلال المؤتمرات والندوات والمحاضرات، ونشر الكتب والدراسات التي تزيل أسباب الفرقة، وترفع دواعي التعصب، مع العناية بها إخراجاً وعرضاً، يقوم عليها المتخصصون والمؤثرون في واقعهم، وأن يكون العمل بهذا المبدأ متبادلاً في إطار متوازن يتفق عليه.

٣- تدريس مادة تسمى (الثقافة الإسلامية) في الجامعات الإسلامية، تتفق على مفرداتها ومنهجها الأطراف المعنية، يركز فيها على العوامل المشتركة، والمصطلحات الجامعة، مع تقرير مبدأ الاعتراف بالرأي الآخر، يضعها متخصصون معروفون بين أتباع المذاهب.

٤- تبادل الزيارات بين المراجع الإسلامية وعلماء الأمة والمؤسسات العلمية والدينية، عملاً بقوله ﷺ: « وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاوين فيّ، والمتبادلين فيّ ». (١)

١- الموطأ: الإمام مالك، كتاب الشعر، رقم (١٦).

٥- توحيد ما يمكن توييده من مواقيت الشعائر والعبادات المعروفة، لما له من أثر عملي في واقع المسلمين، وإشعارهم بعدم اختلافهم.

٦- التناصر والتعاون على البر والتقوى، ولا سيما تلاحمهم في الملمات.

٧- انتقاء المؤثرات السلبية، ولعل هذه تكمن بوجه أظهر في ثلاثة عوامل، أولها: خارجي، فمن أهم ما يعيق التواصل بين المذاهب الإسلامية ما يدبره أعداء الأمة والمتربصين بها وبمختلف الطرق والأساليب من أجل إضعاف تضامنها، ووضع العقبات للحيلولة دون تواصلها، بغية تحقيق أهدافهم عن طريق تفرقتها.

ثانيها: سياسات بعض الحكومات الإسلامية التي تستخدم الطائفية لتحقيق أهدافها السياسية الخاصة.

ثالثها: بعض التيارات الفكرية والسياسية التي يقلقها مثل هذا التقارب، وما يولده من قوة سياسية واجتماعية وفكرية ترى فيها منافسة لحركتها في المجتمع. لذلك ينبغي الحذر مما تعمله هذه الأطراف الثلاثة مجتمعة، وما تلجأ إليه من إثارة للخلافات وللطائفية، والعزف على أوتار الخلاف. والعمل على تلافي مثل هذه المؤثرات أو التخفيف من آثارها على تواصل أبناء الأمة واجتماعها وتعاونها من خلال طمأننتها بأن العمل الإسلامي المشترك والتقارب بين المذاهب والجماعات الإسلامية لا يشكل خطرا عليها وذلك بالتفاعل الإيجابي مع باقي التيارات والحركات في المجتمع، وإظهار حسن النوايا الصادقة معها، وبما يخدم الأهداف العليا للأمة والبلدان الإسلامية مجتمعة.

والله ولي التوفيق



## الخاتمة

وفي الختام نستذكر جملة مما سجله البحث وانتهينا إليه بنقاط مقتضبة:

إن القرآن الكريم إذ دعا المسلمين إلى الوحدة، وميز أمتهم عن الأمم بوحدة جماعتها، وأخوة رابطتها، فإنه أناط حقيقة إيمانهم بلزوم الجماعة وعدم الشذوذ عنها، وربط بين توحيده تعالى وبين وحدتهم، وأحاط هذه الجماعة المتوحدة بسياج من الأحكام والمبادئ الواقية التي تمنع الدخول، وتدفع التمزق والتنازع، فأمر بالتوالي بينهم من دون الناس، ونزع أسباب الاختلاف والافتراق، ودرء ذرائعه.

وإذ أن الاختلاف وما قد يؤدي إليه من افتراق أو تنازع، قد ينشأ في الواقع، فإنه قرر مجموعة من القواعد والضوابط التي تضبط الاختلاف بينهم بما يبقي الجماعة المسلمة في دائرة التواصل والتكامل، ولا يؤدي بها اختلافها إلى الخروف عن اتئلافها، فبين أن الاختلاف الفكري سنة من سنن الكون، وهو طبيعي بين البشر، لكنه مع ذلك فإن المسلمين يجب عليهم أن يدفعوه بالقدر الشرعي،

## المصادر والمراجع

- ١- إحياء علوم الدين: الغزالي، القاهرة، سجل العرب، ١٩٦٧م. ودار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ.
- ٢- الاختلاف في العمل الإسلامي - الأسباب والآثار: ناصر بن سليمان العمر، منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية.
- ٣- آداب الحوار وقواعد الاختلاف: مر بن عبد الله كامل. الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية، بدون بيانات.
- ٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود محمد العمادي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- ٥- اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية، القاهرة، السنة المحمدية، ط٢، ١٣٦٩هـ.
- ٦- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، تونس، دار سحنون.
- ٨- لتفسير القيم: جمع محمد أويس الندوي، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٧٣.
- ٩- التفسير الكبير: الرازي، طهران، دار الكتب العلمية، بت.
- ١٠- جامع البيان: الطبري، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٩٧٢.
- ١١- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.
- ١٢- الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة: يحيى بن محمد حسن، عمان، دار المعالي، ٢٠٠٢م.
- ١٣- الحوار الإسلامي بين الدواعي والمعوقات: مجلة البيان (ع ٢١٦٤ س ٢٠٠٥).

- ١٤- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين: محمد الغزالي، مصر، المنصورة، دار الوفاء، ط٢، ١٩٨٨.
- ١٥- روح المعاني: الألوسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بت.
- ١٦- سنن الترمذي (الجامع الصحيح سنن الترمذي): محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- ١٧- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، مذيّل بأحكام الألباني عليه.
- ١٨- سنن النسائي: المجتبى من السنن: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٩٨٦.
- ١٩- سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر.
- ٢٠- شعب الإيمان: البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ.
- ٢١- صحيح البخاري: بيروت، دار ابن كثير، ١٩٨٧م.
- ٢٢- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣.
- ٢٣- صحيح مسلم: بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٤م.
- ٢٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: الشوكاني محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ)، بيروت، دار الكتب.
- ٢٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: الهيتمي نور الدين علي بن أبي بكر، بيروت، دار الفكر، ١٤١٢ هـ.
- ٢٦- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: أحمد بن تيمية الحراني (ت ٧٢٦هـ)، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد قاسم العاصمي، الرياض، دار مكتبة ابن تيمية.
- ٢٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٧٣.
- ٢٨- المستدرک علی الصحیحین: الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، بيروت، دار الفكر، ١٩٦٨م.

٢٩- مسند أحمد بن حنبل: القاهرة، مؤسسة قرطبة، مذيّل بأحكام الأرووط على الأحاديث.

٣٠- المعجم الأوسط: الطبراني، تحقيق : طارق بن عوض الله، عبد المحسن الحسيني القاهرة، دار الحرمين، ١٤١٥.

٣١- الموسوعة الفقهية الكويتية: الكويت، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

٣٢- الموطأ: الإمام مالك، رواية يحيى الليثي، مصر، دار إحياء التراث العربي،  
بت